﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: 96]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عـزّز التّرغيب بالتّذكير بالنّعيم الرّبّانيّ الباقي

بَيَّنَ اللّهُ تعالى في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ خَيْريَّةَ ما عِنده، وبَيَّن في هَذِهِ الآيَةِ الكَريمَة أنَّ ما عِنْدَه مِن نَعيم الجَنَّةِ باقٍ لا يَفْنى، فأضاف سبحانه إلى ترغيبهم في العمل بما يُرْضيه ترغيبًا آخرَ، فقال سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، وهو وجْهٌ من وجوه الخيريَّة لما عند اللّه تعالى[1]. "وأوْضَحَ هَذا المَعْنى في مَواضِعَ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: 108]، وقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: 54] وقَوْلِهِ: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: 2 - 3][2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَدُ﴾: (نفد): أصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على انْقِطاعِ شَيءٍ وفَنائِه، نَفِدَ الشَّيْءُ يَنْفَدُ نَفادًا؛ وأنْفَدوا: إذا نَفِدَ زادُهم، أو نَفِدَتْ أموالُهم[3]؛ وخَصْمٌ مُنافِدٌ: إذا خاصَمَ ليُنْفِدَ حُجَّةَ صاحبِه، يُقالُ: نافَدْتُهُ فنَفَدْتُهُ[4]؛ واسْتَنْفَدَ وُسْعَه، أي: اسْتَفْرَغَه؛ وأنْفَدَتِ الرَّكيَّةُ: ذَهَبَ ماؤُها[5]؛ والمقصود بالنَّفادِ في الآية: الانقِراضُ والذَّهابُ والفناءُ[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4262.
(2) الشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 3/ 136.
(3) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفد).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نفد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نفد).
(6) ابن الجوزيِّ، زاد المسير: 2/ 582، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 271.

2) ﴿بَاقٍۗ﴾: (بقي): أصْلٌ واحِدٌ، وهو الدَّوامُ؛ قالَ الخليلُ: يُقالُ: بَقِيَ الشَّيءُ يَبْقَى بَقاءً، وهو ضِدُّ الفَناءِ؛ وقالَ أيضًا: اسْتَبْقَيْتُ فُلانًا، وذلكَ أنْ تَعْفوَ عن زَلَلِه، فتَسْتَبْقِيَ مَوَدَّتَهُ[1]، والباقي ضربان: باقٍ بنَفسِهِ لا إلى مُدَّةٍ، وهو الباري تعالى، ولا يصحُّ عليه الفَناءُ، وباقٍ بغيره، وهو ما عداه، ويصحُّ عليه الفَناءُ، والباقي باللّه ضربان: باقٍ بشَخْصِهِ إلى أن يشاءَ اللّه أن يفنيَه، كبَقاءِ الأجرام السَّماوية، وباقٍ بنَوعِهِ وجِنْسِهِ دونَ شخْصِه وجزئِه، كالإنسان والحيوان، وكذا في الآخرة باقٍ بشَخْصِه كأهلِ الجنَّة، فإنَّهم يبقوَن على التَّأبيد لا إلى مدَّةٍ، والآخرُ بنوعِهِ وجِنْسِهِ، كما روي عن النَّبيِّ ﷺ: "لا يَنْزِعُ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ مِنْ ثَمَرِها إلّا أُعيدَ في مَكانِها مَثلاها"[2]؛ والمقصود بالبقاء في الآية: عدم الفناء[3].

3) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾: أصلُ (جزى): قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ غَيْرِهِ، ومُكافَأَتُهُ إيّاهُ، يُقالُ: جَزَيْتُ فُلانًا أجزيهِ جَزاءً، وجازَيْتُهُ مُجازاةً[4]؛ والجَزاء: ما فيه الكفايةُ من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر[5]؛ والجَزاء أيضًا: القَضاء، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]، وتَقولُ: جَزَى عَنّي هذا الأمرَ يَجْزي، كَما تَقولُ: قَضَى يَقْضي[6]؛ ويُقال: جَزَيْتُهُ بكذا، وجازَيْتُهُ، ولم يجئ في القرآن إلّا جزى دونَ جازى، وذاك أنَّ المجازاة هي المكافأة، وهي المقابلةُ من كلِّ واحدٍ من الرَّجُلين، والمكافأةُ هي: مقابلةُ نعمةٍ بنعمة هي كُفْؤُها؛ ونِعْمةُ اللّه تَتَعالى عن ذلك، ولهذا لا يُستعمل لفظُ المكافأةِ في اللّه ﷻ، وهذا ظاهر[7]؛ والمقصود بالجَزاءِ في الآية: العِوَضُ عن عَمَلٍ؛ والمُرادُ به: الثَّوابُ الحَسَنُ في الدُّنيا والآخرة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أضاف اللّهُ تعالى إلى ترغيبهم في العمل بما يرضيه ترغيبًا آخرَ، فقال: ما عِندَكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ينتهي، ويَفنى، وإن كان كثيرًا، وما عِندَ اللّهِ مِن الثَّوابِ في الجَنَّةِ مُستَمِرٌّ

(1) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بقي).
(2) أخرجه البزّار، المسند، رقم الحديث: (4187)، ويُنظر: الرّاغب، المفردات: (بقي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 271.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جزي).
(5) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (جزي).
(7) الرّاغب، المفردات: (جزا).

لا يَنقَطِعُ ولا يفنَى؛ فاحرِصوا عليه، واعمَلوا للظَّفَرِ به، ثمَّ بشَّر الحقُّ سبحانه الصّابرين على طاعته بأعظم البشارات، فقال: ولَنُثيبَنَّ الصّابرينَ يومَ القيامةِ على أحسَنِ الَّذي كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا من الأعمالِ الصّالحةِ، ونتَجاوَزُ عن سَيِّئِ أعمالِهم[1].

اللهُ أبقى وخيرُه أبقى

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف بجملة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾:

وقعت جملة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ تَعْليلًا لِلْخَيْريَّة بِطَريقِ الاسْتِئْنافِ، فحَظُّ الإنسان من دنياه عَرَضٌ زائل، والمعنى: ما تَتَمَتَّعونَ بِهِ من نَعيمِ الدُّنْيا، وإنْ جَلَّ، بَلِ الدُّنْيا وما فيها جَميعًا ﴿يَنفَدُ﴾، وإنَّ جَمَّ عَدَدُهُ، ويَنْقَضي، وإنْ طالَ أمَدُهُ، و﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من خَزائِنِ رَحْمَتِهِ الدُّنْيَويَّةِ والأُخْرَويَّةِ ﴿بَاقٍ﴾ لا نَفادَ لَهُ، أمّا الأُخْرَويَّةُ؛ فظاهِرَةٌ، وأمّا الدُّنْيَويَّةُ؛ فحَيْثُ كانَتْ مَوْصولَةً بِالأُخْرَويَّةِ، ومُسْتَتْبِعَةً لَها، فقَدِ انْتَظَمَتْ في سِمطِ الباقياتِ الصّالِحاتِ[2].

التَّرغيب في الزُّهد

إيثارُ الموصول ﴿مَا﴾ في الموضعَيْن:

أوثر الموصولُ ﴿مَا﴾ في الموضعَيْن: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾؛ للدَّلالة على العموم والشُّمول، فكُلُّ ما يَملكه العِباد زائل، ونعيم الجنَّة باقٍ.

كُلُّ ما يَملكه العِبادُ زائلٌ، ونعيمُ اللهِ باقٍ

وقد ذَكَر الله تعالى دَليلًا قاطِعًا عَلى حَقارَةِ عَرَضِ الدُّنْيا وخَيْريَّةِ ما عِنْدَه سبحانه وديمومته فقالَ سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ "ومَعْلومٌ لِكُلِّ عاقِلٍ أنَّ ما يَنْفَدُ، ويَزولُ، وإنْ بَلَغَ في الكَثْرَةِ إلى أيِّ مَبْلَغٍ؛ فهو حَقيرٌ يَسيرٌ، وما كانَ يَبْقى، ولا يَزولُ، فهو كَثيرٌ جَليلٌ، أمّا نَعيمُ الآخِرَةِ فظاهِرٌ، وأمّا نَعيمُ الدُّنْيا الَّذي أنْعَمَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 349، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 601، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 448.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 275.

اللّه به عَلى المُؤْمنينَ، فهو وإنْ كانَ زائلًا، لَكِنَّهُ لَمّا كانَ مُتَّصلًا بِنَعيمِ الآخِرَةِ كانَ مِن هَذِهِ الحَيْثيَّةِ في حُكْمِ الباقي الَّذي لا يَنْقَطِعُ"[1].

إضافةُ العنديَّة إلى ضمير الجمع دون الظّاهر:

امتدادُ للخطاب السابق دون امتناع الشمول

عِلَّةُ إضافة العِنْديَّة إلى ضمير الجَمع دون الظّاهِر في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾؛ لأنَّ في السّياق امتداد الخِطاب مع الَّذين يشترون بأيْمانهم ثمنًا قليلًا، وإن كان المعنى لا يمنع شمولَ الخطابِ للخَلْق أجمعين.

نكتة التَّعبير عن النَّفاد بالمضارع:

ما عِنْد النّاس دائمُ النَّفاد

نُكْتة التَّعبير عن النَّفاد بالمضارع: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾؛ لِتَجَدُّد نفادِ ما عِنْد النّاس حالًا بَعْد حالٍ؛ يقولُ ابن عرفة: "عبَّر عنه بالفعل؛ لأنَّ النفادَ هو التَّغيُّرُ والزَّوال، والبقاءُ صفةٌ ثُبوتيَّةٌ دائمةٌ، زمنَين فصاعدًا، ناسب التَّعبيرُ فيها بالاسم"[2].

توجيه العطف بالواو:

عِنْديَّةُ الله تعالى باقيةٌ وعِنْديَّة البشر دائمةُ الزَّوال

الواو عاطفةٌ، وجملة: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ لا محلَّ لها مِن الإعراب معطوفةٌ على الجملة التَّعليليَّةِ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾، وفي العطف إظهارٌ للمُغايَرَة بين عِنْديَّة الله تعالى الباقيةِ الَّتي لا انقضاءَ لها ولا نفادَ، وبين العِنْديَّةِ البشريَّةِ الدّائمةِ الزوال.

سرُّ تكرار (عِنْدِيَّة الله) في الآيتيْن:

توكيدُ ثواب الله تعالى

كُرِّرت (عِنْديَّة الله) في الآيتيْن؛ لتوكيدها، ولِتَنزيلِ المُخاطَبين مَنْزِلَة مَن يُنْكِر دوامَ ثوابِه سبحانه.

بلاغةُ العدولِ عن المضارع إلى اسم الفاعلِ في وصْفِ ما عِنْد الله:

لَيْسَ بعاقلٍ مَن آثر الفانيَ الخَسيسَ على الباقي النَّفيس

عُدِل عن المضارع الدّالِّ على التَّجَدُّد ﴿يَنفَدُ﴾ إلى اسم الفاعلِ في وصْف ما عِنْد الله ﴿بَاقٍ﴾: للدَّلالة على دَيْمومَةِ ما عِنْد الله تعالى[3]؛

(1) الشّوكاني، فتْح القدير: 2/ 800.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة، مخطوط مكتبة الإسكندرية برقم: (9124): 2/100.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 138.

والمعنى: "ما عندكم من متاع الدُّنيا وزهرتِها يفنى، وينقضي، ويزولُ، وما عِنْد الله تعالى في الآخرة من عطاءٍ باقٍ لا يفنى، ولا يزولُ، فآثِروا ما يبقى على ما يَنْفَدُ"[1].

بلاغة الطِّباق بين ﴿يَنفَدُ﴾ و﴿بَاقٍ﴾:

فَــرْقٌ بـين ما يـوجَـد لِيَنْتهي وما يوجَد لِيَبْقى

أظْهر الطِّباق البَوْنَ الشّاسع بين مُلْكٍ بَشَريٍّ زائل فانٍ، وعطاءٍ ربّانيٍّ باقٍ لا ينْفَدُ، وهو كالفرقِ بين مُلْك الخالق، ومُلْك المخلوق.

قال أبو زهرة: "في المقابلة بين ما عِنْد النّاس، وما عِنْد الله، فقد وصَفَ ما عِنْد النّاس بأنَّه يَنْفَدُ، وما عند الله بأنَّه باقٍ؛ أيْ: له صفة البقاء والدَّوام والاستمرار، وفَرْقٌ بين ما يوجَد ليَنْتهي، وما يوجَد ليَبْقى"[2].

دلالة التَّذييل والمثَل في ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾:

ما عِنْدَ الله لَهم خَـيْرٌ مُـتَـجَـدِّدٌ لا نَفادَ لَهُ

جُملَةُ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ تَذْييلٌ وتَعْليلٌ لِمَضْمونِ جُملَةِ: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، بأنَّ ما عِنْدَ الله لَهم خَيْرٌ مُتَجَدِّدٌ لا نَفادَ لَهُ، وأنَّ ما يُعْطيهِمُ المُشْركونَ مَحْدودٌ نافِدٌ؛ لِأنَّ خَزائِنَ النّاسِ صائِرَةٌ إلى النَّفادِ بالإعْطاءِ، وخَزائِنُ الله باقيَةٌ[3].

دلالةُ الواو في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾:

(الواو) عاطفةٌ؛ والجمعُ بين وصْفِ ما عِنْد الله، والجزاءِ للصّابر عليه ترغيبٌ وتشريفٌ.

التَّعبير عن الجزاء بالمضارع المؤكَّد باللّام وبالنون:

ترغيب المُخاطَبين في الثَّبات على فضيلة الصَّبر، وعلى الوفاء بالعهد

عُبِّر عن الجزاء بالمضارع المُؤكَّد باللّام التي هي لامُ القَسَم لِقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، وبنون التَّوكيد الثَّقيلة: ليفيدَ تفخيمَ الجزاءِ وتعظيمَه وتوكيدَه، "ولترغيبهم - المُخاطَبين - في الثَّبات على فضيلة الصَّبرِ، وعلى الوفاء بالعهد"[4].

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 230.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 426.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 269.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 230.

توجيه القراءتَيْن في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾:

تعظيمُ الجزاء، وتأكيدُ العطاء

في قوْله تَعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ التفاتٌ من الغَيْبة إلى التَّكَلُّم؛ حيثُ كان الظّاهرُ أن يُقال: وما عِندَ الله باقٍ، ولَيَجزيَنَّ الَّذينَ صَبَروا، لكنِ التفتَ إلى ضمير المتكلِّم بِنونِ العَظَمَة؛ للدَّلالة على عَظمة الجزاءِ وفخامتِه، ولتشريفه، وهذه قراءةُ ابنِ كثيرٍ وعاصمٍ وابن عامر بخلاف؛ وقرأ الباقون بياءِ الغَيْبة رجوعًا إلى ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لتَقَدُّم ذكرِه العزيزِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[1].

وقد عَلَّق أبو السُّعود على هذا الالتفاتِ بقوله: "وقَوْلُه تَعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ بِنونِ العَظَمَة عَلى طَريقَةِ الالتِفاتِ تَكْريرُ المَوْعِدِ المُسْتَفادِ من قَوْلِه تَعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ عَلى نَهْجِ التَّوْكيدِ القَسَميِّ مُبالَغَةً في الحَملِ عَلى الثَّباتِ في الدّينِ، والالتِفاتُ عَمّا يَقْتَضيهِ ظاهِرُ الحالِ من أنْ يُقالَ: ولَنَجْزِيَنَّكم أجْرَكم بِأحْسَنِ ما كُنْتُم تَعْمَلونَ؛ لِلتَّوَسُّلِ إلى التَّعَرُّضِ لِأعْمالِهم، والإشْعارِ بِعِلِّيَّتِها لِلْجَزاءِ، أيْ: واللهِ لَنَجْزِيَنَّ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ عَلى أذيَّةِ المُشْرِكينَ، ومَشاقِّ الإسْلامِ الَّتي من جُملَتِها الوَفاءُ بِالعُهودِ، والفَقْرُ، وقُرِئَ: بِالياءِ من غَيْرِ التِفاتٍ، و﴿أَجْرَهُم﴾ مَفْعولٌ ثانٍ لـ(نَجْزي)؛ أيْ: (لَنُعْطِيَنَّهم أجْرَهُمُ الخاصَّ بِهِم بِمُقابَلَةِ صَبْرِهِم عَلى ما مُنوا بِهِ مِنَ الأُمورِ المَذْكورَةِ)"[2].

سرُّ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعليل الحُكْم بجملة الصِّلة

عُبِّر بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم﴾؛ لتعليلِ الحُكم، وهو الجزاء بأحسنِ ما كانوا يعملون من خلال جملةِ الصِّلةِ: ﴿صَبَرُوٓاْ﴾، والمقصود صبرُهم على الوفاء في السَّرّاء والضَّرّاء[3].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/305، والسَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 7/ 284.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 397.
(3) البَغَويُّ، مَعالم التَّنزيل: 5/ 41.

نكتةُ التَّعبير بالفعل ﴿صَبَرُوٓاْ﴾ على هَيْئَة الماضي المجموع:

تَحَقُّقُ الابتلاء وتَحقُّق الصَّبْر عليه

عُبِّر بالفعل الماضي ﴿صَبَرُوٓاْ﴾ في قوله تعالى ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم﴾: للإشارة إلى تَحقُّق ابتلائِهم، وصَبْرِهم عليه، وإلى صَبْرِهم عَلى الوَفاءِ بأوامر اللّهِ ونواهيه، فكلمة ﴿صَبَرُوٓاْ﴾ "تَدلُّ على أنَّ الإنسانَ سيتعرَّض لهزّاتٍ نفْسيَّة نتيجةَ ما يقع فيه مِن التَّردُّد بين الوفاءِ بالعهد أو نقْضِه، حينما يلوحُ له بريقُ المالِ، وتَتَحرَّك بين جَنَباته شَهَواتُ النَّفْس، فيقولُ له الحقُّ ﷻ: اصبرْ، اصبرْ، لا تكنْ عجولًا، وقارنِ المسائلَ مقارنةً هادئةً، وتحمَّلْ كلَّ مشقَّةٍ نفسيَّة، وتغلَّبْ على شهوة النَّفْسِ؛ لتصلَ إلى النَّتيجة المحمودة"[1]؛ "وهي تشيرُ إلى أنَّ الصَّبْر سببُ هذا النَّعيم الباقي الَّذي لا ينْفَد؛ فالصَّبْر هو ضَبْطُ النَّفس في ظلِّ الأوامرِ والنواهي، فضَبْطُ النَّفس عِنْد الأمرِ بالوفاء بالعهد يوجِب ألّا ينْدفعَ الناسُ وراءَ بارقةٍ تحمِل على النَّقض، ويوجب ألّا يُسْتَطار وراءَ مَطْمَعٍ، فلا يَفي، والصَّبْر هو الَّذي يضْبِط النَّفس فيحملُها على الطّاعة، ويحملُها على اجتنابِ المعاصي، والجهادُ بالصَّبْر على كفِّ أهواءِ النَّفس ونزعاتِها جهادٌ سمّاه النَّبيُّ ﷺ الجهادَ الأكبرَ"[2].

سرُّ العدول من (الصّابرين) إلى ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾:

الحثُّ على صفة الصَّبر بأن تكونَ سَجِيَّةً مُلازِمةً

عُدِل عن التَّعبير بـ (الصّابرين) إلى ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيه على سَعة رحمةِ اللّه تعالى، وأنَّ مَن اتَّصف بمجرَّد الصَّبْر زمنًا ما؛ فلَهُ أجرُه[3]، فكيف بِمَنْ جعل الصَّبْر سَجيَّةً له، واستعمله على ما نابَهُ من المكاره، والمشاقِّ؛ مبالغةً في الحثِّ على الصَّبْر.

(1) الشَّعراويُّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8194.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: / 4263.
(3) ابن عَرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 46.

وَجْهُ تعريفِ الأجرِ بالإضافة:

جزاءُ الصَّبْرِ الفوزُ بالطِّلبة، والظَّفرُ بالبُغْيَة

في تعريف الأجرِ بالإضافة إلى ضمير المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿أَجْرَهُم﴾ إشارةٌ إلى استِحْقاقِهم هذا الأجر العظيم، لِصَبرهم على الابتلاءات، وأذى المُشركين، وعلى مَكارِهِ النَّفْسِ وشهواتِها.

العدولُ عن الجمع إلى الإفْراد:

عِظَمُ الثَّوابِ مِن اللهِ، وشمولُ الأجْر

وُحِّد الأجْرُ في قوله تعالى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم﴾، إذ لم يقلْ: ولَنجزينَّ الَّذين صبروا أجورَهم: للإشارة إلى جلال العطاء، وعِظَمِ الثَّوابِ مِن الله تعالى، وإلى شُموله لهم جميعًا، وإلى أنَّهم في مرتبةٍ واحدةٍ؛ وليُشيرَ إلى ما عِنْدَ الله من العطاء العظيم المُشارِ إليه بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾؛ وفي توحيد الأجْرِ إلْماحَةٌ إلى فضل الجماعةِ وبركتِها في مُجاهَدَة الابتلاءاتِ والصَّبر عليها.

ولمّا لم يكنْ ثمَّةَ أعمالٌ متعدِّدة، أو أحوالٌ متنوِّعةٌ غيرُ الصَّبْر: وحَّد الأجرَ؛ ولم يُجْمَع الأجرُ في القرآن إلّا وقد سُبِق بأعمالٍ مُتعدِّدة، أو أحوالٍ تقتضي مراعاتها، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: 29 - 30]، ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الممتحنة: 10].

دلالة الباء:

الباءُ بَيْنَ التَّعْدية والإلْصاقِ والسَّبِيَّة

الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ﴾ إمّا أن تكون للتَّعدية، وإمّا أن تكون للإلصاقِ، أو للسَّببيَّة على حَسَب المَرْجِع، وقد فصَّل ابنُ عرفةَ هذا بقوله: "قيل: هو راجع لعملهم أو لجزائِه، فهل المرادُ يجزيهم بجزاءِ أحسنِ عملِهم، أو بأحسنِ جزاءِ عملِهم؟ والباء على هذا للتَّعدية أو للإلصاق، أو المراد أنَّهم يُجازون على أحسنِ عملِهم،

ويبقى ما دونَه مَسْكوتًا عنه، والباء على هذا للسَّبَب، وفي الآية دليلٌ على أنَّ التَّرْكَ فِعْلٌ؛ لأنَّ الصَّبْر هو حَبْس النَّفْس إمّا على المُؤْلِمات والمشاقِّ، فهو فِعل، أو عقبها على الملائِمات فهو تَرْكٌ، وسَمَّى في الآية جميعَ ذلك عملًا"[1].

دَلالة لفظ ﴿بِأَحْسَنِ﴾:

الإشعار بكمال حُسْن الصَّبْر

تَعَدَّدت آراء المُفَسِّرين في توجيه دَلالة أفعلِ التَّفضيل ﴿بِأَحْسَنِ﴾ بِناءً على تفسيرهم المرادِ مِن العمل في قوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الآية الكريمة، وهل أنَّ صيغةَ التَّفضيل على بابها أم لا؟ قال السَّمين الحلبيُّ: "وقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ﴾ يجوز أن تكونَ أفْعَل على بابِها من التَّفضيل، وإذا جازاهم بالأحسنِ فلَأنْ يُجازيَهم بالحَسَن من باب الأوْلَى، وقيل: ليسَتْ للتفضيلِ، وكأنَّهم فرّوا مِنْ مفهومِ أفْعل؛ إذ لا يلزَم من المجازاةِ بالأحسنِ المجازاةُ بالحَسَن، وهو وهْمٌ لِما تقدَّم مِنْ أنَّه مِنْ مفهوم الموافقة بطريق الأوْلى"[2]؛ و"قيلَ: مِنَ التَّنَفُّلِ بالطّاعاتِ، وكانَتْ أحْسَنَ؛ لأنَّها لَم يُحَتَّم فِعْلُها، فكانَ الإنْسانُ يَأْتي بالتَّنَفُّلاتِ مُخْتارًا غَيْرَ مَلْزومٍ بها، وقيلَ: ذَكَرَ الأحْسَنَ تَرْغيبًا في عَمَلِه، وإنْ كانَتِ المُجازاةُ عَلى الحَسَنِ والأحْسَنِ.

وقيلَ: الأحْسَنُ هُنا بِمَعْنى الحَسَنِ، فلَيْسَ أفْعَل الَّتي لِلتَّفْضيلِ، والَّذي يَظْهَرُ أنَّ المُرادَ بِالأحْسَنِ هُنا الصَّبْرُ؛ أيْ: ولَيَجْزِيَنَّ الَّذينَ صَبَروا بِصَبْرِهم؛ أيْ: بِجَزاءِ صَبْرِهم، وجَعَلَ الصَّبْرَ أحْسَنَ الأعْمالِ لِاحْتياجِ جَميعِ التَّكاليفِ إلَيْه، فالصَّبْرُ هو رَأْسُها، فكانَ الأحسن لذلك"[3].

وأجاد أبو السُّعود في توجيه دَلالةِ أفعل التَّفضيل؛ حيث قال مُفَسِّرًا لقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾"؛ أيْ: لَنَجْزِيَنَّهم بِما كانوا

(1) ابن عَرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 47.
(2) السَّمين الحَلَبيُّ، الدُّرُّ المَصون: 7/ 282.
(3) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 20/ 113.

يَعْمَلونَهُ مِنَ الصَّبْرِ المَذْكورِ، وإنَّما أُضيفَ إلَيْهِ الأحْسَنُ لِلْإشْعارِ بِكَمالِ حُسْنِهِ، كَما في قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: 148] لا لِإفادَةِ قَصْرِ الجَزاءِ عَلى الأحْسَنِ مِنهُ دونَ الحَسَنِ، فإنَّ ذَلِكَ مِمّا لا يَخْطِرُ بِبالِ أحَدٍ لا سيَّما بَعْدَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَجْرَهُم﴾ أوْ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ بِحَسَبِ أحْسَنِ أفْرادِ أعْمالِهِمُ المَذْكورِ عَلى مَعْنى لِنُعْطِيَهم بِمُقابَلَةِ الفَرْدِ الأدْنى مِن أعْمالِهِمُ المَذْكورَةِ ما نُعْطيه بِمُقابِلَةِ الفَرْدِ الأعْلى مِنها مِنَ الأجْرِ الجَزيلِ، لا أنّا نُعْطي الأجْرَ بِحَسَبِ أفْرادِها المُتَفاوِتَةِ في مَراتِبِ الحُسْنِ، بِأنْ نَجْزِيَ الحَسَنَ مِنها بِالأجْرِ الحَسَنِ، والأحْسَنَ بِالأحْسَنِ، وفيهِ ما لا يَخْفى مِنَ العِدَةِ الجَميلَةِ بِاغْتِفارِ ما عَسى يَعْتَريهِم في تَضاعيفِ الصَّبْرِ مِن بَعْضِ جَزَعٍ، ونَظْمِهِ في سِلْكِ الصَّبْرِ الجَميلِ، أوْ لَنَجْزِيَنَّهم بِجَزاءٍ أحْسَنَ مِن أعْمالِهِم، وأمّا التَّفْسيرُ بِما تَرَجَّحَ فِعْلُهُ مِن أعْمالِهِم كالواجِباتِ والمَندوباتِ، أوْ بِما تَرَجَّحَ تَرْكُهُ أيْضًا، كالمُحَرَّماتِ والمَكْروهاتِ، دَلالَةٌ عَلى أنَّ ذَلِكَ هو المَدارُ لِلْجَزاءِ دونَ ما يَسْتَوي فِعْلُهُ، وتَرْكُهُ كالمُباحاتِ؛ فلا يُساعِدُهُ مَقامُ الحَثِّ عَلى الثَّباتِ عَلى ما هم عَلَيْهِ مِنَ الأعْمالِ الحَسَنَةِ المَخْصوصَةِ، والتَّرْغيبِ في تَحْصيلِ ثَمَراتِها، بَلِ التَّعَرُّضُ لِإخْراجِ بَعْضِ أعْمالِهِم عَنْ مَداريَّةِ الجَزاءِ مِن قَبيلِ تَحْجيرِ الرَّحْمَةِ الواسِعَةِ في مَقامِ تَوْسيعِ حِماها"[1]، فـ"(أحسن) صيغةُ تفضيلٍ مُستَعْمَلَةٌ للمبالغة في الحُسْنِ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33]، أيْ: بسببِ عملِهم البالغِ في الحُسْنِ، وهو عمل الدَّوامِ على الإسلام مع تَجَرُّعِ ألمِ الفتنةِ من المُشركين"[2].

إيثارُ الموصول ﴿مَا﴾:

سَعة عطاءِ الله للصّابرين

أوثر التَّعبيرُ بالموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 397 - 398.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 272.

للدَّلالة على سَعة عطاء الله للصّابرين وشُموله الفَرْضَ والواجبَ والمَندوبَ مِن أعمالهم الصّالحة.

وجه التعبير بفعل الكَوْن ماضيًا مجموعًا:

رُسوخٌ في طاعة الله

عُبِّر بفعل الكَوْن ماضيًا مجموعًا ﴿كَانُواْ﴾؛ للإيماء إلى رسوخ طاعتِهم لله تعالى، وإلى أنَّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ ثابتةً في أعمال الخير.

سرُّ صَوْغِ الفعل ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مضارعًا مجموعًا:

طاعة لله مُتجدِّدة لا تنقطع

صيغَ الفعلُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مضارعًا مجموعًا؛ للدَّلالة على استمرار طاعتِهم لله تعالى وتجدُّدها، فالدَّوام صورةٌ للثَّبات المَرْغوب فيه، والمندوبِ له.

إيثارُ الفعل ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دون غيره (يصنعون)، و(يفعلون):

العَمل يحتاج إلى تَفَكُّرٍ ومقارنةٍ بين الفِعْل والتَّرْك

وأوثر الفعلُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دونَ غيره (يصنعون)، و(يفعلون)؛ "لأنَّ العملَ يحتاج إلى تَفَكُّر ومقارنةٍ بين الفِعْل والتَّرْك، وتقليبِ النَّظر في صوَرِه واختيار ما يَهدي إليه النَّظَرُ فيها"[1]، ومِمّا لاشَكَّ فيه أنَّ هذا دَيدَنُ أهلِ الطّاعة، فهُم يعملون الأعمالَ الصّالحة، ويجتنبون الأعمالَ الَّتي تَجلب سَخَطَ رَبِّهم، كما أنَّ العامل يَعْمَل؛ ليحصلَ على ثَمَرَةِ عمله، وهذا يتناسب مع قوله سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم﴾.

عِلَّة حَذْف متعلِّق الفعل ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

الدَّلالة على شمول فضل الله وحُسن ثوابه

حُذِف متعلِّق الفعل ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على شمول فضلِ الله، وحُسْنِ ثوابه لأعمالهم المقبولةِ عنْدَه سبحانه صغيرةً كانت أم كبيرةً، قليلةً أم كثيرةً.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يعملون) و(يفعلون):

الفِعل: التأثير مِن جِهَة فاعلٍ مُؤَثِّرٍ، وهو عامٌّ لِما كان بإجادةٍ أو

(1) عبد العظيم المطعنيُّ، دراسات جديدة في إعجاز القرآن الكريم، ص: 131.

أعمالهم مقصودةٌ تفكُّرًا، ورغبةً، ودوامًا

غيرِ إجادةٍ، ولِما كان بِعِلْمٍ أو غير عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولِما كان من الإنسان والحيوان.

والفرقُ بين الفعل والعمل: أنَّ العملَ إيجادُ الأثر في الشَّيءِ، يُقال: فلانٌ يعمل الطّين خَزَفًا، ويعمل الأديم سِقاء، ولا يُقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ فِعْل الشَّيءِ عبارةٌ عما وُجِدَ في حالٍ كان قبلَها مقدورًا سواءٌ كان عن سببٍ أم لا، والفعل قدْ يُنْسَب إلى الحيوانات الَّتي يقع منها فِعْلٌ بغير قَصْدٍ، وقد يُنْسَب إلى الجمادات، والعملُ قَلَّما يُنْسَب إليهما[1].

والخلاصة أنَّ الفعل أعَمُّ للإنسان والحيوان، ويكونُ بقَصْدٍ وبغير قَصْدٍ، والعمل أخَصُّ، ويكون بِقَصْدٍ، ويُنْسَب للإنسان غالبًا، ولهذا اختير في سياق الآية؛ ليدلَّ على قَصْديَّة أعمالِهم، تفكُّرًا، ورغبةً، ودوامًا.

(1) الرّاغب، المفردات، مادتا: (فعل) و(عمل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»